الرسالة التاسعة

إلى سنجاب

أنا سنجابٌ عراقيٌّ
فريسةٌ مفضلةٌ للحيواناتِ الضاريةِ
لم يزلْ فروي البنّيُّ لامعاً
وذيلي كثيفَ الشعرِ ومشاكساً.
أذناي صغيرتانِ جداً لكنني أسمع صرخةَ من يتألمُ
في أبعدِ بقعةٍ في العالمِ.
أنا سنجابٌ أرضيٌّ
حلمتُ كثيراً بأن أكونَ من النوع الطائرِ،
لم يتحققْ حلمي إلا بعد أن اكتشفتُ أَنّي شاعرٌ
يطلقُ إشاراتِ تحذيرٍ ضدّ ما يهددنا، نحن السناجبَ الضعيفة، من مخاطرَ.
أنا مزدوجَ النوعِ: أرضيطائر.
أرى الأرضَ من عليائي وإلى السماءِ من دونائي
اختلطتِ الأبعادُ في نظرتي

أنأ لستُ أنا
دخلتُ بين غيمتينِ
مثل شاعرٍ داخلَ إلقصيدةِ وخارجها.
طائرةٌ نفاثةٌ محملةٌ بالعشاقِ الراكضينِ
نحو مواعيدِهم بلا مواقيتَ محددةٍ.
بينما الخفافيشُ تسخرُ من أحلامي الصغيرةِ
لأنها لا تطيرُ إلا في الليلِ كاللصوصِ،
أحببتُ الفئرانَ التي تقيمُ في البيوتِ
لأنها مخلوقاتٌ عائليةٌ.
أمسِ، مثلاً، صادفتُ فأراً جميلاً، في الحديقةِ
سألتُهُ: هل تحبُ الفستقَ؟
أجابَ: نعم، مثل حلمتها.
أنا أقفزُ من شجرةٍ إلى فكرةٍ
ومن لحظةٍ إلى حيرةٍ:
يا لعبقريةِ ذلك الإنسانِ الذي خَلَقَ الآلهةَ.
ثُلةٌ من سناجبَ تتدلّى من نجمةٍ
وتفكّرُ بمستقبلِ الماضي
وأنا مضطربٌ بين قصيدةٍ وجرحٍ
منذُ اكتشفتُ أنني سنجابٌ شاعرٌ

ينشرُ قصائدهُ في الريحِ
أو يلقيها على جمهورٍ من الحيواناتِ الذكيّة.
لا أعرفُ هل أنا غصنٌ أم سيفٌ
في الأمسِ البعيدِ رأيته مشنوقاً
ذلك القردُ الذي سرقَ موزةً،
بكيتُ، نعم، غير أني تفهمتُ عينيه المفتوحتينِ على الموتِ.
الليلُ يخيفني
والذكرياتُ صغيرةٌ عندما يتعلّقُ الأمرُ بطموحِ الغابةِ.
المستقبلُ ماضي الأيامِ المقبلةِ.
أنا السنجابُ لدي أصدقاءٌ مزعجونَ أحبهم
ولدي فراشاتٌ يابسةٌ أثبتها بدبابيسَ على قلبي
ولديّ تفاحاتٌ مشاغبةٌ أستعيرها من غابةِ حبيبتي،
وأضعُ لغتي على رصيفٍ خارجِ الألسن.
معجمُ البلهِ السائدِ الذي لا يفهم لغتنا، نحن السناجبَ الموتورين.
أحببتُ أن أقضّي أكثرَ وقتي في الأعالي
رغمَ ارتباطي بالأرضِ قوتاً ورحلاتٍ وخوفاً.
كلُّ قصيدةٍ رحلةُ طيرانٍ مدهشةٌ رُغمَ خطرها.
هكذا ضاعفتُ حياتي كمخلوقٍ أرضيطائر
بين الأرضِ والسماءِ،

المشكلةُ العويصة التي واجهتها في حياتي
هي الملكيةُ الخاصةُ لأنها ضدّ الحبِّ.
كلّما أحببتُ أنثى تغتني وتطردني من مقاطعتها الأرضيّةِ
إذ لكلٍّ من الذكرِ والأنثى مقاطعته الخاصة.
لا تتوقعوا أن حياتنا، نحن السناجبَ، بلا قوانينَ ومواضعاتٍ،
الحبُّ، مثلاً، يشترطُ رحلةً قد تطولُ في موسم التكاثرِ،
لكنني مخلوقٌ عاشقٌ ولي ذيلٌ مشاكسٌ غالباً ما يكونُ اختراقُ
القوانينِ سجيّةً في سلوكِ العشاقِ.
أريدُ أنثايَ في أوقاتٍ مستحيلة
ولا أعترفُ بأي موسمٍ للحبِّ كتكاثرٍ.
أكابدُ الرحلةَ نحو أرضِ حبيبتي التي لا تفهم كثيراً في الحبّ.
هي تعتقدُ بأنني أغزو منطقتها الخاصة فتدافع عن ملكيتها
بشراسةِ ذئبٍ أحمقَ.
لا تهدأ حبيبتي إلا بعد أن أقرأَ لها قصيدةَ حبٍّ أو أدسّها لها
بين عناقيدِ العنبِ لتقرأها في غيابي.
أشرعُ في تمسيدِ فروِها الناعمِ وألحسُ أصابعَ أقدامها الأربعِ ثم
أقبّلُ سُرّتها صعوداً نحو صدرها أرضعُ الحليبَ الأسودَ حتى أبلغَ
شفتيها
حتى تطردني من عشّها الصغيرِ الرطبِ مثل قبوٍ للنبيذِ.

ذلك أحدُ القوانينَ التي تحكمُ الحياةَ الغراميةَ للسناجبِ:
الحبُّ وسيلةُ تكاثر، كما لدى الكثير من البشرِ، كما سمعتُ للأسف.
البارحةُ أغرقتني النجومُ بفضةٍ لا لزومَ لها،
لكنني فرحتُ بما أتاحه مصباحٌ زيتيٌّ خلفَ نافذةٍ مغلقةٍ
وللسنجابِ فضولُ الأطفالِ وهم يكسرونَ ألعابهم.
زحفتُ نحو تلك النافذةِ ألصُّ ما خلفها
رأيتُ امرأةً بملامحَ شرقيّةٍ تدللكُ رجليها بحجرٍ أسودَ
أصختُ السمعَ فغمرني صوتُ سبابتها يئنُ وثديها يتراجعُ،
طرقتُ نافذتها التي يغمرها الضبابُ
التفتتْ إليَّ لتجيءَ عيناها بعينيَّ بالضبطِ.
عيناها سوداوانِ مشوبتانِ باللازوردِ
كأنها كانت تبكي منذُ الولادةِ،
تجاهلتني بينما كنتُ أرومُ الدخول لأتحدثَ إليها
كُنتُ ضحيةَ تجربةٍ ثقيلةِ الوطء.
فكرتُ: بأيةِ لغةٍ يتحدث سنجاب مستوحش لامرأةٍ عيناها سوداوان مشوبتانِ باللازوردِ لأنها كانت تبكي منذُ الولادةِ؟
فتحتْ نافذتها فدخلتُ.
صبّتْ لي سائلاً أصفرَ في صحنٍ صينيٍّ

ثم وضعتْ في وسطه حبة تينٍ بنفسجيّةً.
أكلتُ الحليبَ وشربتُ التينة لفرطِ اضطرابي
كانت امرأةً من عاجٍ هنديٍّ وقرفةٍ سوريّةٍ.
يتهدّلُ زيقها حتى بانت ثلاثةُ أرباعِ حلمتها.
قفزتُ إلى حجرها وهناك نمتُ.
الليلُ فانوسٌ مطفأٌ وأنا نائمٌ حتى فجر حديقتها.
كررتُ زياراتي لتلك المرأةِ
حتى صارتْ حبيبتي
لأنني لم آلفْ إنساناً سواها،
وهكذا، صرتُ أنقرُ نافذتها كلما أحسستُ بالوحشةِ.
تباطأتْ حركتي في السنواتِ الأخيرةِ
لأن حقيبتي امتلأت بخساراتي
كلما ضاقتْ خياراتي ازدادتْ خساراتي.
أيها السنجابُ القابعُ في أقصى الغابةِ
لا تعبثْ بفكرتي الحائرةْ
وأنا أرى وجهكَ كلما تطلعتُ في مرآتي
لا توخزْ أضلاعي بطلاقتكَ البريّةِ
ولا تتوقعْ أني سأسرقُ حساسيتك إزاء الوجودِ
أو شعورك الحادّ بالحياةِ

يا توأمي ونقيضي مثل شاعرٍ داخلَ القصيدةِ وخارجها،
بين حديقتينا البريّتينِ ثمة مشترك يتلخصُ
بالاختلافِ.
أكرهك وأحبك،
مثلما أشعرُ نحو نفسي.
أنا كائنٌ معقدٌ قدرَ ما يتعلّقُ الأمرُ بالحوارِ
بين اثنين: أنا وأنا.
رغم هذا سأبقى سنجاباً عراقياً
بأذنينِ صغيرتينِ تستطيعانَ الإنصاتَ لأبعدِ ألمٍ
في هذا العالمِ.

لندن 16 كانون أول (ديسمبر) 2017